علاقة الثقافة بالتكوينات المعمارية والحضرية: البيئة المبنية في ليبيا

علي فارس أعويدة و عزالدين محمد الشاوش

قسم العمارة والتخطيط العمراني كلية الهندسة جامعة طرابلس

ABSTRACT

This paper concentrate in general on the important relationship which links between culture and built environment existing in architectural forms, such as different kinds and functions of buildings, also urban spaces as streets and squares in villages and towns.

The paper explains the influence of cultural conceptions on architecture in general, and also on urban forms which shape the built environment at the scale of city, particularly in the old traditional environment, which is more effective, because these environments are connected with culture and public traditions as a public heritage.

The paper, also distributes many examples for cultures influence on architecture and urban forms. For instance the old city of Tripoli, also the difference between the planning and architecture of old Tripoli as an Islamic city, and the Italian planed part, which expresses the Italian architecture and planning. This model clearly reflects the colonial fascism concepts of architecture, and city planning in Libya.

Also the paper distributes the capability of culture and environment influence on the design concept of Arab Islamic towns, whether in forms or architectural language used. As examples, the paper presents the towns of, Ghadames, Ghat and Hoon as typical wonderful models of Libyan traditional built environment.

The paper determines some differences of influence of cultures, traditions and environments on the shape of architecture and spaces form of streets, paths and squares. As a comparison example, two towns have been explored, Tripoli as an Arab Islamic old costal town, and old Ghadams as an Arab Islamic desert town, and explain to what extent that the influence Impact of culture and environments on the architecture and space styles at these two towns.

Finally, the paper conclude with some guidelines which should be followed by architects, planners and urban designers, through their design processes of architecture, planning and urban design in Libya.

الملخص

تركز هذه الورقة في مجملها على العلاقة المهمة التي تربط بين الثقافة والبيئة المبنية المتمثلة في التكوينات المعمارية من مبان بجميع أنواعها ووضائفها وكذلك الفراغات الحضرية المتمثلة في الشوارع والساحات بالقرى والمدن.

تتعرض الورقة إلى تأثير المفاهيم الثقافية على المعمار بشكل عام، وكذلك التكوين الحضري الذي يشكل البيئة المبنية على مقياس المدينة وخاصة في البيئة التقليدية القديمة، حيث كانت أكثر تأثيرا لارتباط هذه البيئات بالثقافة والتقاليد الشعبية كموروث شعبي تقليدي.

تطرح هذه الورقة أمثلة لتأثير الثقافات على المعمار والتكوين الحضري مثل ما نشهده في مدينة طرابلس القديمة، وكذلك الفارق في تخطيط طرابلس القديمة ومعمارها كمدينة إسلامية،

والجزء التخطيطي الإيطالي الذي يجسد التخطيط والعمارة الإيطالية ويعكس بوضوح الثقافة المعمارية الإحتلالية الفاشية للعمارة وتخطيط المدن في ليبيا.

تطرح الورقة أيضا قدرة تأثير الثقافة والبيئة في تصميم المدن العربية الإسلامية سواء في تكوينها أو اللغة المعمارية المستخدمة فيها، وساقت أمثلة لذلك مدينة غدامس وغات وهون كنماذج رائعة للبيئة المبنية التقليدية الليبية.

كما تحدد بعض الفوارق في تأثير الثقافات والعادات والتقاليد والبيئة على شكل المعمار وتكوين الفراغات للشوارع والزقاق والساحات، وأستدل الباحثان بمثال للمقارنة بين مدينة طرابلس العربية الإسلامية القديمة كمدينة ساحلية بحرية ومدينة غدامس القديمة كمدينة عربية إسلامية صحراوية ومدى تأثير هذه الثقافات المبنية على طرز العمارة والفراغ بهاتين المدينتين.

أخيرا خلصت الورقة إلى نتائج وإرشادات توصي بها المعماريين والمخططين والمصممين الحضريين لأخذها في الاعتبار أثناء وضع المعالجات التصميمية للعمارة والتخطيط والتصميم الحضري في ليبيا.

الكلمات المفتاحية: العمارة؛ التصميم الحضري؛ الأصالة الثقافية؛ البيئة المبنية؛ التكوين الحضري؛ التكوين المعماري؛ البيئة التقليدية.

مقدمة

الثقافة يمكن أن تتأكد من خلال الأشياء والبيئة المادية (الملموسة)، وعلى سبيل المثال نرى أن المنازل والمباني العامة والفراغات وغيرها غالبا ما تعكس القيم والاعتقادات الثقافية والاجتماعية لأن الثقافة والتكوين المادي يكونان متصلين بالناس ولا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض. عليه فمن وجهة نظر بعض العلماء في هذا المجال يرون أن الثقافة تتعامل مع كل السمات الحياتية التي تدخل أو تؤثر في البيئة المادية لحياتنا.

لقد أكد حسن فتحي [1] بأن العمارة يجب أن تكون لأجل الإنسان وأن تكون مسئولة عن حاجاته النفسية والثقافية كما هي مسئولة عن إشباع حاجاته المادية والفسيولوجية، لذلك كان حسن فتحي دائما يرفض سياسة توحيد مجتمعات العالم في قالب واحد (Internationalism) من نمط العيش مقتبسا ومتأثرا بالتقنية الحديثة. ولذلك ففي تعريفه للأصالة الثقافية (Cultural Authenticity) فأن حسن فتحي يؤكد على أنه لا يوجد أساسا أي تبديل أو تغيير بين الثقافات، أي بمعنى إحلال ثقافة مكان الأخرى لأن العناصر الثقافية الأساسية تطورت كاستجابة للحاجات النفسية والبيئية المحلية وبأن العناصر الغريبة لا يمكن إنباتها أو نقلها من الثقافات أو البيئات الأخرى إذا كانت غير مناسبة ثقافيا.

إذن من البديهي فإن أية عناصر معمارية أو حضرية وذات مدلول ثقافي أي أنها دخيلة عن النسيج المتجانس للبيئة المبنية التقليدية (Traditional Built Environment). ستولد تعارض مع الثقافة التقليدية المحلية وتؤثر فيها وتفسدها لأن التكوينات المعمارية والحضرية لها تأثير مادي ونفسي واجتماعي وثقافي على الناس ينعكس من خلال سلوكياتهم ومعيشتهم اليومية [1]. إذن من الطبيعي أن تكون لكل ثقافة تعريفها الخاص بها للتكوين المعماري والتكوين الحضري مبنيا على عوامل وتوقعات وظروف تخص تلك الثقافة. يجب أن ندرك بأن الحياة الإنسانية ستكون أغنى وأسعد بكثير إذا كان لكل أمة هويتها وثقافتها الخاصة التي تناسب شعوبها ومناخها وبيئتها وكذلك تاريخها [2].

تأثير المفاهيم الثقافية على التكوين المعماري والحضري

هذه المفاهيم المختلفة للثقافة إذن سواء تم تطبيعها من خلال القيم والاعتقادات والسلوكيات أو المشاعر المختلفة فأنها في النهاية تعني وتؤكد المجتمعات وتخلق بيئاتهم الإنسانية. ومن جهة أخرى فأن التكوينات المعمارية والحضرية يمكن أن تندرج تحت محتوى البيئة المبنية والتي بدورها ترجع إلى نتائج تغيرات الناس البيئية، مثل البيوت والمدن والمجتمعات والتكوينات الحضرية وفى هذا الإطار يمكن أن تقسم البيئة المادية إلى جزئيين:

البيئة الطبيعية والبيئة المبنية

التكوين المعماري يكون محصوراً في حدود المبنى أو جزء منه مهما كانت وظيفته، لذلك فالمعماريون قد صنفوا التكوين المعماري والى تكوين صلب وتكوين ناعم. ولكن التكوين الحضري يهتم بمقياس أكبر في البيئة المبنية كمجموعات المباني والفراغات والمناطق الحضرية والمدن وغيرها. هذه الأشياء إذن قد تأثرت وبقوة بالثقافة منذ أن بدأ الإنسان في خلق وبناء تكويناته المعمارية والحضرية.

كان الاعتقاد السائد بأن الإنسان في الحضارات القديمة قد شكل ثقافته معماريا في سبيل إقناع وإشباع حاجاته وبناء على سمات ثقافية معينة، وقد حدث هذا بحيث أخذ في الاعتبار والى حد بعيد البيئات والأوضاع المناخية المختلفة [3]. فمثلا الهيكلية والتكوين المعماري للمسجد في الثقافة والدين الإسلامي يعتبر مختلفا تماما على الهيكلية والتكوين المعماري للكنيسة في الثقافة والديانة المسيحية وكذلك عن الدير في الثقافة والديانة اليهودية. وفى هذا السياق كذلك نستطيع أن نلاحظ لماذا المدينة التقليدية الإسلامية على سبيل المثال تمتلك هيكلية تكوينية وشكلا مختلفا مقارنة بالمدينة التقليدية الايطالية أو المدينة التقليدية الصينية وهكذا. طبعا هذه الاختلافات قد تأثرت بحدة بواسطة التنوع في الثقافات وعليه فهذه التكوينات المعمارية والحضرية أكدت ورسخت هذه الثقافات في عدة اتجاهات مختلفة وبنتائج متباينة الوضوح (الأشكال 1،2).

شكل 1: المسجد يمثل التكوين المعماري المهيمن لنسيج المدينة الإسلامية

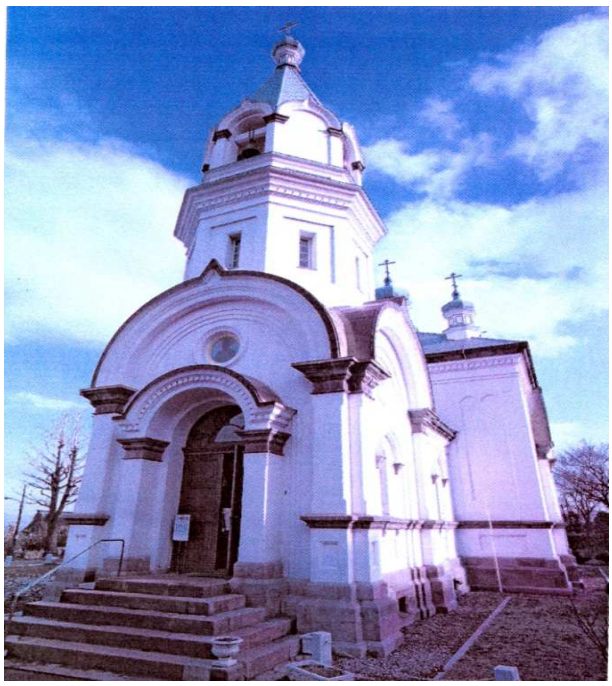

شكل 2: التكوين المعماري للكنيسة

عرَف بعض العلماء المعماريون العمارة التي ترتبط بعامة الناس بأنها مثلها مثل الفن المرتبط بعامة الناس ليست نتاج قلة من المفكرين أو أناس ذوى ميزة معينة ولكن نتاج تلقائية واستمرارية للنشاط الذي يمارسه كل الناس انطلاقا من تراث مألوف بحيث يكون تحت سيطرة وتحكم خبرة المجتمع. وقد كان هذا هو النهج أو المنهج للعمارة والتصميم الحضري القديم. لقد كانت خبرات الناس اليومية وممارساتهم العملية ولأساليب وطرز الحياة والبناء بأنفسهم هي التي تصنع العمارة، وعليه فعمارة أي منطقة يجب أن تكون مرتبطة ارتباطا حميما مع المفاهيم العامة للثقافة والتقاليد الاجتماعية الايجابية وكذلك بالضروريات والاحتياجات للحياة اليومية [4]. لقد ذكرنا أن الثقافات المختلفة قد تركت علاماتها على البيئة العربية الليبية ولكن المجتمع العربي الليبي قد أصبح بالكامل مجتمعا عربيا مسلما ثقافيا وتقليديا وليس مجرد سكان عرب تداخلوا وتأثروا بتلك الثقافات والديانات الغير مألوفة لديهم مثل الإغريق والرومان والطليان، وعلية سوف نركز على تأثيرات هذه الثقافات في التكوينات المعمارية والحضرية للبيئة العربية الليبية. هذه التأثيرات مازالت موجودة وفعالة إلى الوقت الحاضر، وكذلك لا يزال هناك شواهد وأمثلة كثيرة توضح التعارضات الواضحة بين تلك الثقافات والأديان التي سادت المنطقة، أيضا لا يزال هناك مثال وشاهد جديد مماثل في التعارضات التي ذكرت يشكل مصدر تدخل وغزو لبيئتنا العربية المسلمة بواسطة محاولة ترسيخ ثقافة جديدة ولكن بمفهوم عصري. وعلى سبيل المثال: ففي المدن الإغريقية والرومانية القديمة في ليبيا مثل شحات في منطقة الجبل الأخضر ولبدة وصبراته (والتي كانتا في الأصل عبارة عن مستوطنات فينيقية ثم جاء الرومانيون وأعادوا بنائهما) في منطقة طرابلس الإنسان يستطيع أن يرى الاختلافات في الثقافات وطرق الحياة المختلفة إذا أراد أحد زيارة

هذه المدن بعين متفحصة يمكنه أن يلاحظ على سبيل المثال كيف أن هؤلاء قد استطاعوا أن يرسخوا أديانهم بواسطة اختيارهم لمواقع دقيقة لتماثيلهم والتي تمثل آلهتهم كما يدعون.

المسرح هو معلم آخر والذي يؤكد ويرسخ بوضوح نشاطاتهم الثقافية والفنية وبعض سمات وطرز حياتهم الاجتماعية. كذلك الحمامات الشعبية فهي عناصر مهمة أثرت في شكل المدن وأكدت نوع آخر من النشاط والتفاعل الاجتماعي. أيضا الاختلافات ظهرت بوضوح بين الثقافات الإغريقية والرومانية بشكل عام لأن هناك تعارضات في بعض السمات لطراز الحياة والنظم السياسية وهذا بالطبع ترك علامته على العمارة والتكوين الحضري.

هذه التكوينات جعلت الإغريق يختارون سياق آخر لكي يبنوا تكوينهم المعماري الخاص ولكي يتعاملوا مع الفراغات في حدود الحس الإنساني. ومن جهة أخرى فان التكوينات الرومانية قد أسست على تلك العوامل والتي تخدم بالدرجة الأولى إحساسهم بالقوة والضخامة وسيطرة المؤسسة العسكرية.

هذه الثقافات بسيماتها المحددة قد أملت تكوينات معمارية وفراغية وبشكل مغاير تماماً مقارنه بالتأثيرات العربية الإسلامية التي أثرت أخيرا على هذه العناصر. هذا التأثير العظيم الذي أحدثه الطراز الجديد للعمارة والتكوينات الحضرية والذي استنبط من دين جديد وثقافة جديدة وكذلك من طراز حياة جديد بدأ يسود، وعليه فإن شكل ووظيفة التكوينات المعمارية والحضرية قد تغيرت بناء على تأثير هذه العوامل الجديدة ومفاهيمها الخاصة والمميزة. على سبيل المثال فان فلسفة استعمال الفراغ عند العرب يختلف على الآخرين، فاستعمال الفراغ حول المسجد مثلاً ليس كاستعماله حول الكنيسة، لذلك فإن فراغ الفناء أمام المسجد والذي تفتقده الكنيسة عادة قد أستعمل لأغراض دينية واجتماعية كالصلاة والنشاط التعليمي واللقاءات وهكذا.

طرابلس القديمة (المدينة الثقافية)

ويمكن من جهة أخرى أن نرى في المدينة القديمة بطرابلس تباين واضح بين الثقافات والذي يتأكد من خلال مميزات التكوين المعماري ومواد البناء المستعملة في المباني على سبيل المثال قوس ماركوس اورليوس سنة (163 ق.م) والذي هو التكوين المعماري الوحيد من معالم قليلة بقيت في مكانها من العصر الروماني، هذا القوس يتباين مع جامع قرجي بمأدنته الثمانية الجميلة ومحاطا بواسطة تكوينات معمارية مختلفة سواء من حيث مواد البناء والملمس أو طراز المعمار نفسه، انه بالكامل مميزات متعارضة لهذه التكوينات ولكن مدينة طرابلس القديمة لازالت تجسد كثيراً من المعالم والتي تجعلها نموذج للمدن الإسلامية، أن نسيجها الحضري ومعالمها الهامة تبين كثيرا من المميزات الثقافية للمدينة والتي تطورت في العالم الإسلامي، أن أهم المعالم المميزة والتي تربط المدينة القديمة مع مدينة طرابلس الجديدة هي قلعة السرايا الحمراء، أن تاريخ هذه القلعة بدأ مع مجئ الفينيقيين من بلاد الشام وخاصة لبنان ثم غزيت واحتلت وأعيد بنائها بواسطة كثير من القوى الأجنبية منذ أن أسست إلى غاية آخر صيانة عملت لها بواسطة الطليان. كل هذه القوى تركت علاماتها على هذا التكوين المعماري القيّم، فالقلعة تسيطر على الميناء بقوة ولكن بدون فقدان ميزة الجمال في ميلانها وشرفاتها المتناغمة وهى تسيطر وتشرف على ميدان الشهداء (المدان الرئيسي بمدينة طرابلس) كفراغ حضري أخذ أهميته من القيمة المعمارية والتاريخية لمبنى القلعة (شكل 3، 4) [5] .

الطليان كما قلت حاولوا خلق ثقافة جديدة والتي هي بالطبع مثال للثقافة الغربية وتجاهلوا الوضع الموجود والذي تأكد بفعل الثقافة العربية الإسلامية منذ أكثر من 1200 سنة مضت، عليه فقد كان العمل مباشرة من خلال تغيير الثقافة في المجتمع العربي الليبي لم يكن ذات جدوى على

الإطلاق، ولكن العمل من خلال الجانب المادي كالبيئة المبنية والتكوينات المعمارية والحضرية وغيرها قد استطاع الايطاليون أن يحققوا بعض النجاحات.

لذلك فالايطاليون لم يستطيعوا تغيير الثقافة ونمط الحياة الموجودة وكذلك اللغة والدين للمجتمع العربي الليبي المسلم ولكنهم تركوا بصماتهم على البيئات المبنية المادية، وعلى سبيل المثال فالعمارة الفاشستية تستطيع أن تميزها بسهولة عند زيارتك للمدن الليبية وبالتحديد مراكز المدن الكبيرة مثل طرابلس وبنغازي، فالكنيسة الإيطالية في طرابلس برومانسية بنائها بالطوب تعتبر مبنا جميلا وخاصة في أشعة الشمس القوية للمناخ السائد في ليبيا بالرغم من أنها ليست أجمل تصميم قدم في المسابقة لهذا المشروع ولكن هذا التصميم اختير لأنه يجسد مفاهيم وفلسفة العمارة الفاشية المطلوب توطينها بالمستعمرات الإيطالية، وفى مدينة بنغازي فالعمارة الفاشستية المتمثلة في هذه الأنماط مثلا مازالت تعمل كعلامات دالة وواضحة.

شكل 3: قوس ماركوس اورليوس ومن خلفه جامع قرجي- تباين الطراز والثقافات المعمارية بالمدينة القديمة بطرابلس

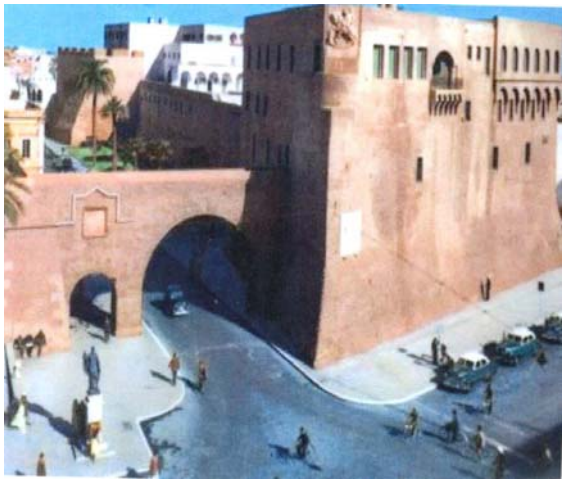

شكل 4: السرايا الحمراء كمعلم معماري يهيمن على الفراغ الحضري بميدان الشهداء

هذه الأنواع من طرز العمارة بنيت أو عملت لانجاز أغراض ثقافية محددة لتأكيد الاستعمارِ الايطالِي على الأرض العربية الليبية ولكن لسوء حظ المستعمرين قد خدمت أغراض مِغايرة تماما وأيضا ثقافة مختلفةٍ لأن سيادة الثقافة العربية الإسلامية والدين الإسلامي قد خلقا نمط حياة مختلفة والتي غالبا ما رفضت التكوينات الغير منسجمة معها والتي اعتبرت دخيلة على الوجود التقليدي للبيئة المبنية الأصلية في ليبيا.

الحمامات الشعبية

الحمامات كانت عنصراً حضرياً مميزاً للعصر الروماني والبيزنطي ولكن العرب والأتراك المسلمين كيفوها وأصبحت عنصرا نموذجيا للمدينة العربية الإسلامية وتخدم أغراض متنوعة صحية واجتماعية وترفيهية وكذلك دينية بطريقة غير مباشرة، ففي المدينة العربية الإسلامية التقليدية بطرابلس هذه الحمامات عززت بقوة التفاعلات الاجتماعية وتكونت بناء على ما تتطلبه طرز الحياة الاجتماعية بالمدينة، لقد كانت وظيفة التكوين والفراغ المعماري التي بموجبها يتم إنجاز تلك الأغراض.

المنزل ذو الفناء المفتوح

يعتبر المنزل معلم معِماري وحضري مميز هو الأخر للبيئة العربية الإسلامية التقليدية في ليبيا, لقد ظهر وكيّف ثقافيا ليرضي ويشبع معظم مطالب السكان واحتياجاتهم إلى أبعد الحدود التي ترتضيها المطالب الدينية والأعراف الاجتماعية، فالبيت ذو الفناء كان أصل اِستعماله من قبل الرومان والإغريق ولكن العرب المسلمين كيّفوا تصميمه ليرضي ويؤكد كثيرا من المفاهيم، كالخصوصية والوضع الاجتماعي والأمن والتكيف المناخي والمسئولية العائلية وغيرها. هذه المسائل أخذت في الاعتبار من الأساس وتأكدت بواسطة الثقافة العربية الإسلامية في ليبيا.

طرابلس القديمة – غدامس القديمة

توجد في ليبيا مدن قديمة والتي معظم منازلها تعتبر منازل ذات فناء مثل مدينة طرابلس وغدامس وغات وهون وغيرها، وهى على نمط كثير من المدن العربية والإسلامية القديمة في شمال أفريقيا، فالتكوين الحضري والتكوين المعماري لهذه المدن قد تأثر بقوة بواسطة الثقافة وبقية العوامل المحلية كالمناخ والحياة الاجتماعية والعرف الاجتماعي وغيرها، وعلى سبيل المثال فالإنسان يستطيع أن يرى الفرق بين مدينة طرابلس القديمة على الساحل والتي معظمها قد تأثر بفترة الحكم التركي حيث مازالت تجسد مميزات المدينة العربية الإسلامية التقليدية، ومدينة غدامس القديمة في الصحراء والتي اعتبرت كمدينة عربية إسلامية ظهرت في بداية ظهور الإسلام ومجيئهم إلى ليبيا بالرغم من وجودها ألاف السنين قبل الميلاد.

والاختلافات بين هاتين المدينتين قد تكون على سبيل المثال:

في الهيكلية التكوينية والشكلية، فالمساجد بأشكال مآذنها المتنوعة تسود الشوارع في مدينة طرابلس القديمة موضحة مواقع المساجد وتعمل كأنها علامات خلفية على طول محاور الشوارع ولكن شوارع المدينة ضيقة ولا تتبع أي نظام تخطيطي منتظم وتعطي مثال قوي لقواعد النمو العضوي، تحول نفسها بنفسها إلى شارع أسواق أينما يتطلب ذلك.

الشيء الملاحظ في مدينة طرابلس القديمة ذلك أن الشوارع الثانوية (الأزقة) عادةً ما لها نهاية مغلقة أو عبارة عن نظام ذو نهاية مغلقة (كول– دى– ساك) يؤدي إلى المنازل، كذلك

كانت أقواس المدينة في الشوارع والتي تعمل على تدعيم الشارع من كلا الجانبين لتمنع المباني من الانهيار على الشوارع الضيقة ولتثني الجنود الغزاة من ركوب خيلهم واستعمال الشوارع، هذا العنصر وهو القوس والذي أيضا يعمل على تخفيف حدة ضوء الشمس معروف في كثير من مدن البحر الأبيض المتوسط ولكنه أستعمل في المدينة القديمة بطرابلس بإحساس قوي ورائع، وعليه قد أصبح أحد مميزاتها القيّمة (شكل 5،6).

شكل 5: النسيج العمراني للمدينة الإسلامية (المدينة القديمة بطرابلس)

شكل 6: التكوين المعماري والعمراني لشوارع وزقاق المدينة القديمة بطرابلس

لكن مدينة غدامس كمدينة عربية اسلامية تقليدية فى الصحراء تعتبر فريدة من نوعها من بين المدن الليبية القديمة الأخرى ومنها مدينة طرابلس القديمة نتيجة لنظام شوارعها المغطاة على شكل قنوات والتكوين المعماري لمنازلها المغلقة، ولذلك فأن الميزة الرئيسية لهذه المدينة القديمة هى شوارعها المغطاة، فالمدينة معظمها مغلق ماعدا بعض الفتحات الصغيرة على طول الشوارع، (كل 20 متر تقريبا)، كل هذا بجانب الطراز المعماري الفريد للمدينة والذى يمكن تمييزه عن غيره بواسطة وجود بروزات على كل ركن من أركان السطح لأي مبنى سواء كان منزل أو فندق أو مسجد، وهذا الطراز معروف فى ليبيا بالطراز الغدامسي نسبة إلى اسم المدينة.

والجدير بالذكر أن أفنية المنازل في مدينة غدامس القديمة تعتبر مغلقة ما عدا فتحات صغيرة في الأسقف وذلك لغرض دخول ضوء الشمس وتجديد الهواء بإخراج الهواءِ الساخن والأبخرة، ويعتبر هذا تكييفا للشكل بحيث يخدم الأغراض المناخية للمنطقة. أيضا فالعوامل الثقافية والاجتماعية والمناخية قد أثرت وبقوة في المعالجات التصميمية للفراغ والتكوين المعماري لمدينة غدامس والتي هي في الواقع عبارة عن شوارع مغطاة و مكتظة بالسكان، فالشوارع قد قسمت إلى مستويين: الشوارع الأرضية والتي في معظمها مغطاة وتستعمل بشكل رئيسي من قبل الرجال والأولاد والبنات الصغار وعلى جانبي هذه الشوارع الضيقة المغلقة توجد مقاعد وزعت بناء على أعمار المستعملين لها، ولكن المستوى العلوي من هذه الشوارع حيث توجد المطابخ على أسطح المنازل فإن النساء تستطيع السير من بيت إلى آخر من خلالِ مماشي وسلالم موجودة وتؤدي إلى كل بيت، وعليه فالبيئة على أسطح المنازل كانت مختلفة كثيرا عن المستوى الأرضي لأن الاختلاف كان في الوظيفة والاستعمال لتلك العناصر (شكل 7، 8).

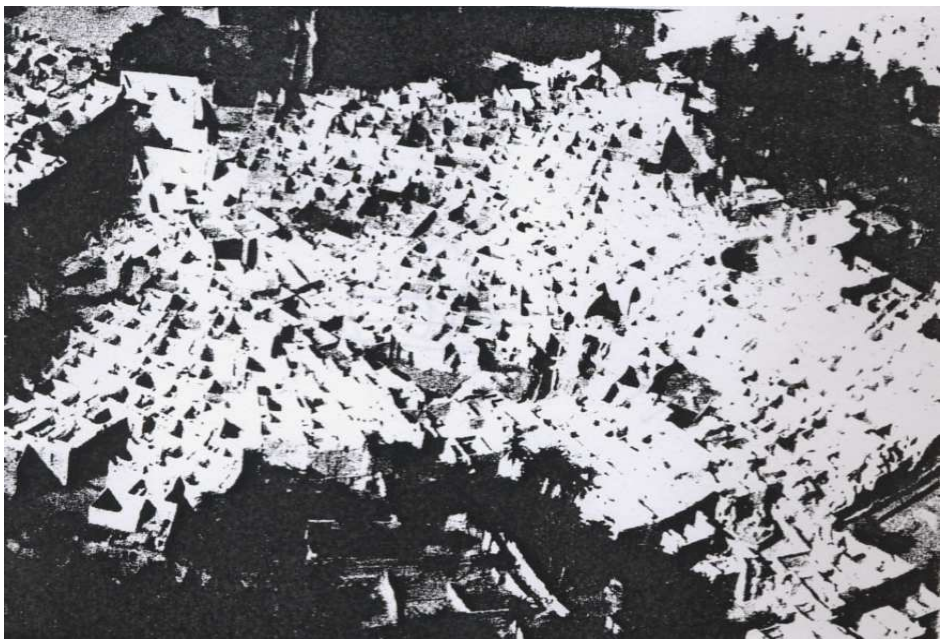

شكل 7: النسيج والتكوين العمراني لمدينة غدامس القديمة

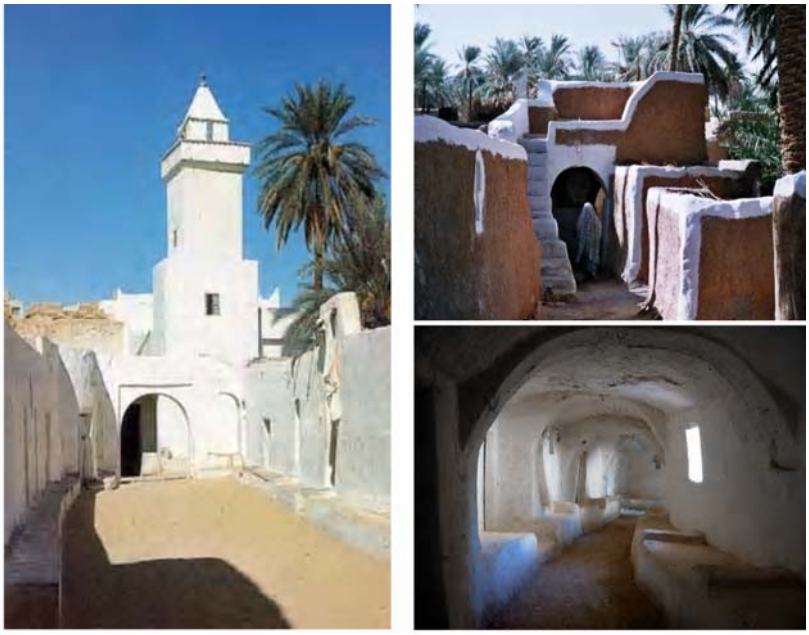

شكل 8: التكوين المعماري والعمراني لشوارع وزقاق مدينة غدامس القديمة

كذلك مدينة هون القديمة: تعتبر مثالاً آخراً للتكوين الحضري التقليدي فى ليبيا، حيث الشوارع والممرات فى العادة تسقف وتدعم بواسطة كمرات منتظمة من جدوع أشجار النخيل وكذلك بأقواس بنيت بالطين والأحجار لكى تدعم المباني ولكي توفر الظلال في وجود ضوء الشمس الحاد والحرارة العالية.

كذلك تمثل مدينة هون القديمة وكذلك سوكنة وودان القديمتين أمثلة رائعة للمدينة العربيةٍ الإسلامية الصحراوية التقليدية والتى يكون فيها النسيج العمراني والمعماري للبيئة المبنية متجانسا مع وجود المسجد كمعلم معماري وديني وثقافي تتمحور حوله المدينة ويكوّن المركز الحضري للمدينة على مدى العصور (شكل 9، 10).

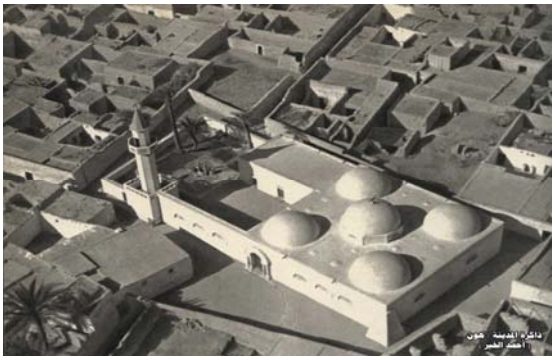

شكل 9: مدينة هون القديمة- حيث التكوين المتضام ومواد البناء المستعملة وسيطرة المسجد كمعلم حضري معماري ثقافي ديني

شكل 10: شارع بمدينة هون القديمة – حيث الأقواس المدعمة للشارع وخلق الظلال المطلوبة بالبيئة الصحراوي

مدينة غات القديمة توضح مثالاً جميلاً للمدينة ذات منازل الأفنية المفتوحة في قلب الصحراء، هذه المدينة تعتبر مختلفة لتلك المدن القديمة التي ذكرت نتيجة إلى تنظيمها واتحاد مركز تكوينها، وهى ذات نسيجا عمرانيا متراصا يسمح بتكوين ضلال ناتجة عن حوائط المساكن وتسقط هذه الظلال على بعضها البعض لتخلق جو ملطف يسمح بخلق بيئة مكيفة ومقاومة للمناخ الحار، إضافة إلى قدرة مواد البناء المستعملة في البناء على عدم امتصاص الحرارة في الصيف والاحتفاظ بها في الشتاء مما يجعل هذه المباني والشوارع تحتفظ بملائمة العيش فيها براحة خلال فصول السنة (شكل 11، 12).

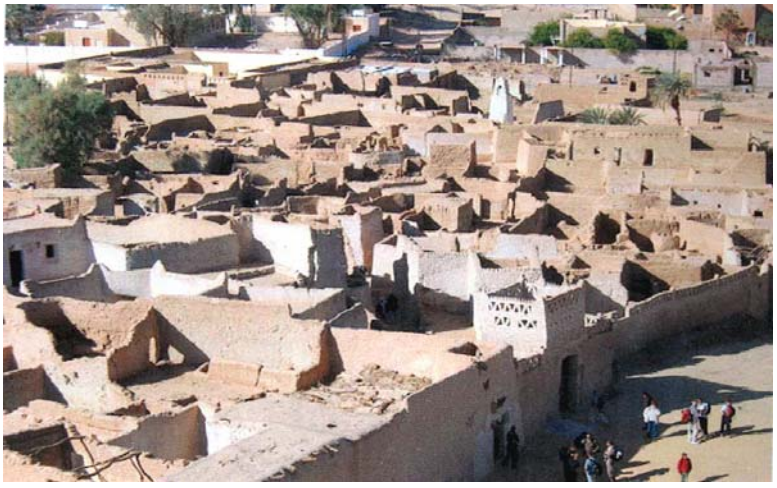

شكل 11: النسيج التقليدي المتراص لمدينة غات القديمة

شكل 12: شوارع وزقاق بمدينة غات القديمة

هذه المدن التقليدية سواء طرابلس القديمة أو غدامس القديمة أو هون القديمة أو غات القديمة أو أي مدينة قديمة في ليبيا فهي مازالت تحتفظ بقيم معمارية تقليدية ولكن بفاعلية أقل من ذي قبل من حيث الاستعمال، أن غزو التكوينات المعمارية الحديثة خلق بيئة حضرية جديدة إلى أبعد حد، بل ربما رسخت ثقافة مغايرة لثقافة المجتمع العربي الإسلامي في ليبيا، وعلى سبيل المثال فأنه بجانب مدينة طرابلس القديمة تستطيع أن تميز مدينة طرابلس الحديثة – شكلاً وتكويناً مختلفا وطرازاً معماريا ومميزات مختلفة أيضا وهكذا بقية المدن، أنه فقدان كلى للتجانس والتناغم وأيضا لا يوجد أي شكل محدد للشوارع وتكوينات المباني بين القديم والجديد بل تناقض واضح للبيئة المبنية. ففي مدينة طرابلس بشكل عام الأنسان يستطيع بسهولة التمييز بين ثلاث مراحل مرئية من العمارة والبنات الحضرية والتى أثر فيها العامل الثقافي والفلسفي تأثيرا كبيرا.

أولاً: المدينة القديمة والتى تمثل البيئة العربية الأسلامية التقليدية.

ثانياً: مدينة طرابلس الحديثة بجزئيها المميزين– الجزء الذي يمثل العمارة الفاشستية الايطالية والذى يتركز بمركز المدينة– والجزء الذي يمثل التطور الحضري الحديث من بداية إلى الوقت الحاضر حيث النمو والهيكل الحضري لمدينة طرابلس غير واضح المعالم ولا توجد مرجعية موحدة له وذلك نظرا لكثرة الأنماط المعمارية والتخطيطية المختلفة المستوردة من الخارج التي يتميز بها هذا الجزء من مدينة طرابلس. هذا التغير في النسخ العمراني للمدينة بدوره أثر تأثيرا كبيرا على أسلوب وحياة المجتمع الطرابلسي وذلك من حيث المستوى المعيشي والعادات والتقاليد السائدة في السابق كما فرض على الناس تغيير وتكييف أسلوب حياتهم وفق الأنماط المعمارية والتخطيطية الجديدة.(شكل 14،13،15)

شكل 13: النسيج العمراني لمدينة طرابلس القديمة- لاحظ الفرق فى النسيج بين طرابلس القديمة والجزء التخطيطي الايطالي

شكل 14: طراز العمارة بالجزء التخطيطي الايطالي لمدينة طرابلس

وبصفه عامه التحضر قد تأسس بسرعة في كل البلاد، ومعظم المدن الليبية قد أخذت نصيبها في هذه العملية— أن هذا الحال الذي وصفناه في طرابلس قد حدت في كل المدن التقليدية في ليبيا، فمثلا بجانب غدامس القديمة هنالك غدامس الحديثة وبجوار سوكنة القديمة قد بنيت سوكنة الحديثة وهكذا، ولكن هذه المدن الجديدة أو الأجزاء من المدن الموجودة والتي تطورت

حضرياً قد بنيت أو مازالت تبنى بناء على فلسفة حديثة يبدو أنها ترسخ وتؤكد مفاهيم جديدة لثقافات أساسا بعيدة كل البعد عن الثقافة الموجودة والسائدة، هذه الأفكار أو المفاهيم للعمارة والتصميم الحضري يبدو أنها قد تجاهلت كلية البيئة المبنيةٍ التقليديةٍ والتيٍ ترسخ وبقوة الثقافة الموجودة والمفهوم الاجتماعي القائم وهى ثقافة عربية ومفهوما إسلاميا أصيلا [6].

شكل 15: نمط القصور التى سادت فى الحقبة الايطالية وقبل 1969 ميلادي

عليه فالتباين حاد جداٍ بين القديم والجديد وهذا الموقف الغير متجانس فيٍ البيئة المبنية الليبية جعل المشكلة أكثر تعقيدا من الناحيةٍ المعمارية والاجتماعية. أنه لمن الروعة إذا أن نرى كيفٍ أن الثقافة وسماتها المختلفة قد أثرت كثيرا في التكوينات المعمارية والحضرية في كل البلاد جنبا إلى جنب مع العمارة المحلية التي تأثرت بشكل واسع بالثقافة العربية الإسلامية السائدة، هذا في مجملة قد شكل التراث المعماري والحضري في ليبيا، ولكن الاختلافات والتباينات بين الثقافات وطرق الحياة ابتداء من الفينيقيين فالإغريق والرومان ثم البيزنطيين والعرب والأسبان والأتراك ثم أخيرا الطليان قد زاد إلى الوضع الموجود والغير متجانس للبيئة الليبية المبنية.

ليس هناك شك فى أن هذا الوضع بجانب النمو الحضري السريع والمتوقع فى السنوات الأخيرة قد يرضي حاجات الناس فى المساكن والخدمات الملازمة لذلك وهذا يمكن أن يدعو ويسمح لبعض المفاهيم والأفكار الأجنبية الحديثة فى العمارة والتصميم الحضري لتحاول بقصد خلق بيئة حضرية لكى تؤسس بعض الأفكار والحلول الغير مألوفة لمجتمعنا وبيئتنا.

الخلاصة

ٍللثقافة تأٍثير عظيم على التكوين المعماري والحضري على حد سواء، أياً كان هذا التأثير ايجابيا أم سلبيا، وباستقراء ومراجعة التاريخ المعماري والحضري يتبين لنا بأنه لكل ثقافة كانت

سائدة أو هى تسود اليوم عمارتها وتكويناتها الحضرية والفراغية التى تجسد مفاهيم وفلسفات هذه الثقافات من خلال طرز معمارية وتكوينات حضرية مميزة.

أن ما يعرف اليوم بالطراز الدولى (Internationalism) لا يمكن أن يكون تجسيداً حقيقياً لثقافة شعبيه على المستوى الدولي لأنه لا توجد ثقافة دولية أو عالمية تجسد أو تجمع ثقافات أمم العالم، لأن كل أمة لها ثقافتها وظروفها الأجتماعية الخاصة بها ومفاهيمها التقليدية والحضرية التى تجسد ثراتها المعماري والحضري، لذلك وفى الحقيقة فأن الطراز الدولي في العمارة لا يجسد ويؤكد الا المفاهيم الغربية فى العمارة والتخطيط الحضري تحت تأثير التقنية الحديثة التى تسوقها الدول الصناعية الكبرى سواء فى مجال البناء والأنشاءات أو تصنيع مواد البناء الجديدة التى تتطلب مهارة عالية فى التصنيع أو ايجاد المصادر الطبيعية لهذه المواد.

كل ذلك خلق تعارض واضح وحاد مع البيئة التقليدية والثرات المعماري والحضري لبيئتنا المبنية والتى أسست وبنيت عبر السنين لتلبي الإحتياج الإنساني للفرد سواء من حيث المقياس أو التكيف الأجتماعى والبيئي لهذه المباني والمدن.

لقد أثرت المفاهيم الثقافية والأجتماعية وطرز الحياة وكذلك الظروف البيئية فى شكل العمارة والفراغات الحضرية بالبيئة التقليدية المبنية، فكانت هذه البيئة مناسبة جدا للعيش الإنساني ومجسدة لثقافة ومفاهيم هذا المجتمع، أن أية ثقافة تدخل عناصر غريبة على نسيج البيئة المبنية المحلية المتجانسة ستخلق تعارضات مع هذه البيئة وستعمل على مسخ الثقافة التقليدية المحلية.

ولذلك توصي على المعماريين والمخططين والمصممين الحضريين الجدد أن يراعوا الآتى أثناء المعالجات التصميمية التى يقومون بها للمشاريع المختلفة:

- صياغة العامل الثقافي فى التصميمات المعمارية والحضرية التى يتم تنفيذها لأن الثقافة تشكل مصدرا أساسيا من مصادر الثرات المعماري والتصميم الحضري.
- إيقاف محاولة المسخ الثقافي وطمس الهوية العربية الأسلامية للبيئة المبنية التقليدية بأدخال المفردات المعمارية وقواعد التصميم الحضري العربية لبيئتنا الحضرية الحديثة.
- خلق قواعد جديدة للعمارة والتصميم الحضري تتلائم مع الواقع والظروف والمعطيات الثقافية والأجتماعية للمجتمع العربي الليبي وتواكب التطور الثقني الحديث.
- تبني مواد البناء المحلية وتطويرها واستحداث ثقنيات جديدة وتتلائم وهذا التطوير سواء فى تصنيع مواد البناء أو ثقنية أستعمالها فى الإنشاء.
- المحافظة على الثرات المعماري والحضري التقليدي المتمثل في المباني ذات الطابع المعماري الذى يجسد هوية العمارة العربية الاسلامية والمدن القديمة التي هي مثال رائع لقواعد تخطيط وتصميم المدن الاسلامية والتقليدية وذلك بأتباع الاساليب العلمية وعمل الدراسات لذلك.
- الاهتمام بالبرنامج العلمي والاكاديمي للتعليم المعماري والحضري وتطور مناهج التعليم في هذه المجالات حتى يمكن تأهيل معماريين ومصممين حضريين من الطراز الرفيع المدرك.
- الاهتمام البالغ بأدخال وتشجيع المشاركة الشعبية في التصميم وخاصة فى المشاريع الاسكانية والخدمية حتى يتم تأكيد معنى ومفهوم المستعمل للمشروع وتكون التصاميم ناجحة عند تنفيذها على أرض الواقع وهذا يزيد من ترسيخ الثقافة السائدة دون تأثير للثقافات المستوردة.

المراجع

[1] Richards M. and others, “Hassan Fathy”, Concept Media Architectural press, 1985.

[2] Kurokawa Kisho, “Intercultural Architecture, the philosophy of Symbiosis”, Academy Editions, London, 1991.

[3] Robert Powell and Others, Exploring Architecture in Islamic Cultures 1, “Architecture and Identity Concept Media”, Pte Ltd, Singapore, 1983.

[4] Rapoport Amos, “Human Aspects of Urban Form”, Pergamon Press, 1977.

[5] علي الميلودي عمورة، طرابلس – المدينة ومعمارها الأسلامي، دار الفرجاني، 1993.

[6] Catanese A. and Snyder J., “Introduction to urban planning” Mc Graw-Hill, 1979.